باغمات والروافض بالاطلس الكبير (2) والبجليين (3) بسوس وقد استاصل المرابطون في صراعهم ضد البرغواطيين شافة هذه الطوائف التي اسهمت نحوا من ثلاثة قرون في نشر التربية ضمن دعاويها العقائدية .

وكانت فاس ملتقى لشتى المذاهب السنية فقد عرفت مذهب الاوزاعي ومذهب ابي حنيفة قبل ان يستقر فيها مذهب امام دار الهجرة وكان الاوزاعي امام اهل زمانه ـ كما يقول مالك ـ انتشر مذهبه في الشام نحو مائتي سنة (4) وكذلك في الاندلس قبل الامويين (5) اما ابو حنيفة فقد ظهرت نظرياته بافريقية الى آخر القرن الرابع ومنها دخل الى الاندلس وفاس حيث لم يحتد الصراع بين المذاهب لانصراف المغاربة الى المذهب المالكي على ان الامام ابا جيدة الفاسي قد حمل معه من الشرق وثائق شافعية (6) بالاضافة الى تضلعه في التفاريع المالكية بينما لم يقدر ذلك للمذهب الحنبلي بالرغم مما اشيع من دخول احمد بن حنبل نفسه الى المغرب (7) وكذلك للمذهب الظاهري الذي تزعمه ابن حزم بالاندلس في القرن الخامس (8) . اما مذهب الامام مالك فان منطقة نفوذه تجاوزت البصرة والحجاز الى الاندلس والجزر المتوسطية كصقلية وافريقيا حيث امتدت من مصر الى تونس والسودان والمغرب الاقصى (9) واذا كان هذا المذهب قد تعزز بالاندلس بفضل يحيى بن يحيى الليثي الذي كان مكينا عند الامويين وفي افريقية بفضل سحنون صاحب المدونة (10) فانه تركز عندنا لاسباب شتى منها ان الادارسة ساندوه لمساندة مالك بيعة العلويين وتقديس البربر لمدينة الرسول عليه السلام ولعاداتها التي اعتبر مالك العمل بها دعامة لمذهبه مع اقرار المصالح المرسلة وتحكيم الاعراف التي لا تصطدم مع روح الشريعة وابى المولى ادريس الا ان يسند القضاء لتلميذ مالك وسفيان الثوري محمد بن سعيد القيسي(11) وقد نشات جامعة القرويين عام 245 هـ في احضان هذا المذهب كجامع تركزت فيه دراسة علوم الدين وعلوم الالة مثل سائر المساجد التي تعتبر معبدا ومعهدا يأوي اليها الغريب ويجتمع في حلقاتها طلبة العلم ولكن هذا الجامع ما لبث ان اصبح في القرن الرابع مهبطا لرواد الفكر يتقاطرون على عاصمة استوطنها قرطبيون وقيروانيون من رجال

---

(2) حسب ابن حوقل وهم اتباع موسى الكاظم الذي اخذ له والده جعفر الصادق البيعة بعد وفاة ابنه اسماعيل (الامام السابع للاسماعيلية) وقد رفضت البيعة لموسى فعرفت بالرافضة التي وجدت بالاطلس الكبير حسب البكري .

(3) اتباع علي بن عبد الله البجلي بماسة وتارودانت .

(4) خطط الشام لمحمد كرد علي .

(5) مدارك القاضي عياض (ج 1 ص 66) الى ان رحل الى مالك فرعوس وشبطون زياد بن عبد الرحمن الذي ادخل الموطأ الى الاندلس وغيرهما فالزم هشام بن عبد الرحمن الاموي الناس بمذهب مالك حوالي 170 هـ اي في حياة مالك حيث كان شيخ المفتين صعصعة بن سلام تلميذ الاوزاعي وامام مذهبه قد ادخل كتب الحديث الى الاندلس (جذوة المقتبس للحميدي طبعة 1952 ص 227) وقد لاحظ محمد كرد علي (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد 20 ص 321) ان بعض المذاهب كمذهب الاوزاعي لم تكن تقل عن غيرها شانا غير ان الملوك لم يعضدوها ولم يهم بها الخاصة والعامة وللاوزاعي كتاب رد فيه على ابي حنيفة في خمس وثلاثين مسالة حربية اي من القانون الدولي العام وانتصر الشافعي في كتابه الام (ج 7) لاكثرها .

(6) توفي ابو جيدة حوالي 360 هـ (سلوة الانفاس لابن جعفر الكتاني ج 3 ص 93 طبعة فاس الحجرية)

(7) كما ورد ذلك في الاعلام للزركلي (ج 1 ص 192) وفي شعراء بغداد للخافاني (ج 1 ص 386) ومجلة اللسان العربي (عدد 3 عام 1965) .

(8) لاحظ احمد امين (ظهور الاسلام ج 2 ص 7) ان الاجتهاد انحصر منذ القرن الرابع في اربعة مذاهب وابطل كما قيل نحو خمسمائة مذهب.

(9) الديباج المذهب في علماء المذهب لابن فرحون المطبعة الحجرية بفاس ص 17) .

(10) (جذوة المقتبس ص 360).

(11) الجذوة ص 13

الفقه والسنة وكان جامع الازهر(12)يؤدي نفس الرسالة في الجانب الشرقي لافريقيا الشمالية بينما ظلت جامعة الزيتونة بتونس العاصمة تتنافس مع القيروان ثم مع بجاية في القرن السابع وقد ظهرت في بادية الجنوب اول مدرسة عرفها المغرب كدار للمرابطين يلقن فيها القرءان ومباديء العلم اسسها وجاج بن زلو اللمطي تلميذ ابي عمران الفاسي الذي كان انتهى به المطاف في تجواله لانتجاع العلم والمعرفة الى حاضرة افريقية حيث برز امثال اسد بن الفرات وسحنون وابن ابي زيد القيرواني والتابسي من رجالات الفقه والاصول وكانت قراءة حمزة هي الشائعة بين القراءات القرءانية السبع الى ان اختار المغرب كالقيروان قراءة نافع منذ صدر المائة الرابعة لتبسيط تلقين القرءان في الكتاتيب التي كانت مجرد جناح في المسجد (ولذلك تسمى المسيد وهي تحريف مسجد) وكانت للعوامل السياسية يد قوية في الاختيارات العقائدية اذ ما كادت مثلا مخطوطات « احياء علوم الدين » للغزالي تنتشر بالمغرب حتى انبرى خصوم المهدي بن تومرت من المرابطين يدعون الى تحريقها لما شاع آنذاك من اتصال الرجلين(13)وكان لتسرب المفاهيم والتعابير الفلسفية الغزالية اثرها في اوساط الفقهاء الذين ما لبث المهدي بن تومرت ان حملهم على عقيدة الاشعري السلفية من تاويل متشابه القرءان والحديث استنادا الى ضروب المجازات مما يتلاءم وروح الشرع ويعضده العقل والطبع وحظر المنصور الموحدي التقليد في الفروع وحمل الناس على الرجوع للاصلين على طريقة الاجتهاد المطلق واحرق كتب المذهب المالكي بعد تجريدها من الحديث والقرآن كمدونة سحنون (14) وكتاب ابن يونس ونوادر ابن ابي زيد ومختصره وتهذيب البرادعي وواضحة ابن حبيب مستعيضا عنها باحاديث اقتبست من المصنفات العشرة على غرار ما نسقه ابن تومرت من احاديث الطهارة فصار المنصور يمليها بنفسه كما يفعل السلطان العلوي محمد بن عبد الله في القرن الثاني عشر الهجري (15) وقد انتشرت هذه المجاميع وحفظها الناس من العوام والخواص (16) فكان فيها ثراء للغة واندرجت منذ ذلك العهد في الفصحى والعامية مآت الكلمات ذات الاصل القرءاني والحديث الفقهي . ومعلوم ان الاشعري لم يكن يؤمن بقدرة العقل المطلقة في البحث عن البراهين للدفاع عن الدين ولكنه لم ينكر ايضا قيمة العقل فلذلك هدف الى ابراز « موافقة العقل الصريح للشرع الصحيح (17) ولم تكن هذه الانتفاضات الموحدية خلوا من دخيل سياسي كالمهدوية الشيعية التي عزز بها ابن تومرت نظام دولته .

وتروى في قصة المهدوية احاديث وآثار واخبار اوصلها ابن ابي نعيم الى الاربعين واضاف اليها السيوطي المصري ما نماها وحللها فراجت في المغرب واثارت موجة من الادعاءات حملت ابن خلدون على نقضها وتفصيل القول في مناكرها ومع ذلك ظهر متنبئون كابن هود الماسي وحاميم الغماري وابن ابي محلى ووجد الكهان مجالا واسعا لمخاريق اسندوها الى حسابات الجفرية وهي جداول منسوبة الى جعفر الصادق امام الشيعة محشوة بالتنبؤات عن ماجريات المستقبل بارقام ومربعات اصبحت لغة للكتاب

---

(12) بني جامع الازهر جوهر الصقلي عام 359 او 360 هـ في حين تاسس جامع الزيتونة سنة 141 هـ (758 م) (صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار للشيخ بيرم ج 1 ص 122)

(13) اكد ملاقاة ابن تومرت والغزالي ابن الخطيب في الحلل واليوسي في المحاضرات والزركشي في تاريخ الدولتين والزبيدي ولم يجزم ابن خلدون في تاريخه ولا صاحب المعجب وقطع بنفيه ابن الاثير في الكامل والصواب في نظرنا التوقف لعدم وجود الدليل على هذا اللقاء .

(14) اول من ادخلها الى فاس دراس بن اسماعيل المتوفى عام 362 هـ

(15) الا ان هذا السلطان كان ينهى في نفس الوقت عن تدريس الاصول اذ لم يبق في نظره اجتهاد (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 213).

(16) المعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (طبعة سلا عام 1357 ـ 1938 ص 177)

(17) هذا عنوان كتاب للحافظ ابن تيمية وقد ثار ابو بكر بن العربي في كتابه (القواصم والعواصم) ضد ما اصاب العلماء في عهد المرابطين من جمود على تفاريع المذهب وضد طريقة التعليم التي تدرجت آنذاك من تلقين القرءان الى الادب ثم الموطا فالمدونة فوثائق ابن العطار فاحكام ابن سهل .

المشحوذين وخاصة في الاطلس الصغير وذاع صيت المغاربة شرقا لاستبحارهم في علوم الطلاسم والتنزلات الروحانية التي تخللت تعابيرها حروف سريانية وعبرية وتداخلت هذه المعطيات مع اسرار التنجيم التي خبرها فقهاء ومتصوفة ادرجوا معها خواص الاسماء وكان لذلك اثره في تعقيد التأويلات القرءانية وخلق مصطلحات جديدة اورد بعضها ابن خلدون الذي علل لنا ببراعته بعض عناصرها مشيرا الى تكهنات مالك بن وهيب فقيه المرابطين ضد ابن تومرت الذي استغل في دعاويه هذا الاستعداد الفطري في نفوس العامة فبدأ بتاسيس رابطة للعباد جمع فيها طلبة القبائل ولقنهم تعاليم التوحيد بكتابه « المرشدة » باللسان البربري ولقب انصاره بالموحدين ووصم خصومه بالتجسيم وهب لقتالهم باسم الدين ومهما يكن فان سوق القرءان والحديث نفق فظهر اول تفسير للقرءان لابن عطية اقتبسه من كشاف الزمخشري مجردا من عناصر الاعتزال كما تتلمذ للشرق محدثون مغاربة منهم ابن سمجون اللواتي الطنجي الذي اقام يقرر الحديث في المشرق ولم يدخله حتى حفظ ـ كما يقول ياقوت ـ اربعة وثلاثين الف بيت من شعر الجاهلية (18) ومحمد الجياني (19) البغدادي الذي روى عن الطبري وجلب من تاليفه احكام القرءان واصول الفقه والرد على ابن حنبل وميمون بن ياسين الذي قرأ على الطبري صحيح سلم وجمال الدين البغدادي الشافعي الذي ولد بقصر تامة بشمال المغرب وعمر بن الطوير المراكشي (20) الذي عرف في مصر بابي الخطاب السوسي وادخل الى المغرب مسائل الخلاف وحفظ البرهان لامام الحرمين ومحمد بن المنذر المراكشي (21) تلميذ امام الحنابلة الشيخ مولاي عبد القادر الجيلالي وقد درس الحديث والفقه بغداد ومحمد بن الخضار السبتي الذي سمع من ابن الصلاح كتابه في علوم الحديث (22) وعلي الحرالي الذي كان ابتدع في التدريس منهاجا « يتنزل في التفسير منزلة اصول الفقه في الاحكام » علاوة على تبريزه في المنطق والطبيعيات والالهيات (23) ومحمد بن عمران الشريف الكركي الفاسي شيخ المالكية والشافعية بالديار المصرية والشامية (24) ويونس بن طريفة القصري الذي ولي التدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة سنة 641 هـ وبذلك اعطى المغرب الاقصى الدليل الناصع على اهلية كاملة لتحمل رسالته الروحية الخالدة في العالم الاسلامي وبرزت فحص هذا الشق النائي من جناحي العروبة كابلغ ما تكون العربية في اصالتها وجزالتها ودقة مصطلحاتها في الخلاف العالي والتفاريع الفقهية وبذلك يمكن القول بان الانتاج المغربي قد اتحد مع الشرق في هذا المجال مبنى ومعنى على ان نزعة الاصلاح والتجديد لم تقتصر على الطب والصيدلة والكيمياء والفلسفة ـ كما سنرى بحول الله ـ بل شملت حتى علوم الالة كنظرية ابن مضاء قاضي (25) قرطبة ايام الموحدين انكار العامل في النحو ، وقد اصبحت فاس(26) آنذاك بجامعتها حاضرة المغرب العلمية وملتقى علمي (27)

---

18) معجم البلدان ج 6 ص 62 (19) توفي عام 546 هـ (سلوة الانفاس ج 3 ص 267)

20) توفي عام 622 كما في الذيل والتكملة .

21) الاعلام للمراكشي ج 4 ص 883، 22 توفي بدمشق عام 634 هـ (درة الحجال ص 282) .

23) حتى كان يقض النجاة لابن سينا انيل الابتهاج بابا السوداني ص 187) . (24) قال فيه تلميذه القرافي انه تفرد بمعرفة ثلاثين علما وحده وشارك الناس في علومهم (الديباج المذهب لابن فرحون ص286)

25) احمد امين (ظهور الاسلام ص 118) حيث لاحظ نقلا عن ابن جني « ان الحركات من الرفع ومن النصب والجر والجزم انما هي للمتكلم نفسه لا لشي غيره .. وان ضرب انتهت بمجرد النطق بها فلا يمكن ان تكون عاملا في زيد او عمرو .. »

26) المعجب للمراكشي ص 221 .

27) وصف هذه الدروس الرحالة البلجيكي اكلينار الذي زار المغرب عام 948 هـ (1540 م.) وكتب رسالة باللاتيني عن القرويين وعوائد الطلبة واوصل عدد مدارس فاس الى المائتين ولعله يعني الكتاتيب القرءانية .

القيروان وفرطبة وتركزت في القرويين بالاضافة الى علوم التفسير والحديث والاصول والفقه والعلوم التقليدية كالنحو والبيان والمعاني والبديع والمنطق والعروض والكلام والتوحيد والتصوف واللغة والادب والتصريف وكذلك الطب والرياضيات (وهي الحساب بالمغرب) والجغرافية والتاريخ وتزيدات افواج الطلبة الواردين على فاس من مختلف الاقطار الافريقية والغربية مثل جيربير Gerbert الذى عين بعد ذلك على راس الكنيسة باسم البابا سلفستر الثاني Sylvestre II عام 999 م وادخل الارقام العربية الى اوربا . وقد عززت دولة بني مرين هي الاخرى نظامها السياسي بتكتيل الطلبة تحت شعار السنة وبناء المدارس (28) ومساندة الصوفية وتشجيع الزوايا والاضرحة التى نفق فيها ـ كما سنرى ـ سوق جديدة بعاداتها وتقاليدها ودسائسها ومناطق نفوذها وادبها الخاص ولغتها ومصطلحاتها .

ورغم تصارع الافكار في هذا الخضم من البدع التى غزت السنة فى عقر دارها فان العلم بالمغرب ظل محاطا بسياج من القداسة بالرغم عن فقدان الملكة والتحقيق العلمي ـ كما يقول ابن خلدون (29) وغلبة الاستظهار حتى قال علي بن ميمون الذي زار الشرق فوازن بين فاس وبين حواضره فى الشام والحجاز ومصر من حيث الاصالة العلمية فقال : « ما رايت مثلها (اي فاس) ومثل علمائها فى حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل وغزارة الحفظ لنصوص امامهم مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل علم مثل النحو (30) والفرائض والحساب وعلم التوقيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب وسائر العلوم العقلية ..

وقد تابع مآت العلماء رحلاتهم الى الشرق نذكر منهم كنماذج لنوع التبادل بين الجناحين :

تاج الدين محمد بن ابراهيم المراكشي (701 ـ 752 هـ) الذي اعاد بقبة الشافعي بالقاهرة وولي تدريس المسرورية ودار الحديث الاشرفية حيث خلفه تقي الدين السبكي (31) وابن المواق احمد التجيبي الذى استظهر الموطا بمصر فضرب شيوخ المالكية الطبول على راسه (32) .

والمحدث الفقيه التاودي بن سودة الفاسي شيخ مرتضى الزبيدي (33) .

وابن زكري الفاسي الذى عقد علماء الازهر مجلسا لمناظرته فى القضايا الفقهية كشرب الدخان (34) .

ويحيى بن موسى الرهوني الحافظ الاديب المنطقي الذى تولى التدريس فى المنصورية والخانقاه الشيخونية بالقاهرة (35) .

وجمال الدين محمد بن موسى المراكشي الذي سمع من شيوخ مصر والشام والقدس واليمن حيث ولي مدرسة الناصر (36) .

والكمال بن ابي البركات المكناسي شيخ المحدث الحافظ ابن حجر العسقلاني (37) ومحمد تقي الدين الفاسي الذى وافق ابن حجر فى السماع بمصر والشام واليمن (38) .

وابن الخضري المراكشي المصري الذي ذكر المقريزي انه كان يحفظ العمدة والالمام لابن دقيق العيد

---

(28) مفضل العذري صاحب الشرطة والحسبة بفاس اول من سن سنة بناء المدارس (جذوة الاقتباس لابن القاضي ص 220) وقام فعلا بنائها محمد الابلى العبدري شيخ ابن خلدون ملاحظا ان ملكة العلم اندرست مع بناء المدارس،ايده بابا السوداني (نيل الابتهاج ص 246) وقد بلغ عدد المدارس بفاس اربعة عشر هي عبارةعن احياء جامعية اي مساكن للطلبة تحتوي على غرف

(29) نشر المثاني للقادري ج 2 ص 97) .

(30) كان موسى بن زيري الهسكوري المعروف بالبخاري يحفظ كتاب سيبويه عن ظهر قلب (درة الحجال ـ طبعة الرباط 1934 ص 314). (31) الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمي ج 1 ص 458). (32) توفى عام 725 هـ (السلوة ج 3 ص 244 . (33) راجع مادة سود فى شرح القاموس للزبيدي .

(34) السلوة ج 1 ص 83 . (35) توفى 774 هـ (درة الحجال ص 490) . (36) مات عام 823 هـ (الاعلام للزركلي ج 4 ص 50 وذيول طبقات الحفاظ . (37) الاصابة ج 4 حرف م. (38) نيل الابتهاج ص318)

والشاطيبتين والطوالع في اصول الدين وابن الجلاب والرسالة في الفقه والحاجبية والملحة وغالب الفيـة ابن مالك والتلخيـص وقد طـارح الادبـاء وقـرض الشعر وشارك في اللغة والطب والهيئة وولي تدريس الفقه في مصر بجامع الحاكم والقرانسقرية والحسنية والحديـث بالفاضليـة والامـادة بالكامليـة والمنصورية (39) .

وعبد الرحمن سقين الذى اخذ الحديث عـن القلقشندي وزكرياء الانصاري والسخاوي بمصر وعن ابن فهد بمكة (40) .

وادريس العراقي الفـاسي الذى كان له كما يقول صاحب السلوة فضل على محدثي مصر حيـث استدرك احاديث كثيرة على الجامع الكبير للسيوطي تنيف على الخمسـة الاف وكان احـفظ مـن ابـن حجـر (41) .

ومحمد بن محمد بن سليمان الروداني الفاسي الذى وصفه صاحب خلاصة الاثر بانه « فرد الدنيا في العلوم » حصلت له بعد التطواف بمصر والحجاز والشام وبلاد الروم الرياسة العظمى في علوم خاصة كالطبيعي والالهي والرياضي والارتماطيقي والمساحة والرمل والحروف والسيمياء (42) وله كتاب جمع فيه كل مصنفات الحديث ضمن مقارنات علميـة قيمـة (43) .

ومدرسة الشيخونية كانت اكبر مدرسة بمصر تضم اليها علماء مغاربة بـرزوا في شتـى العلـوم والفنون وقد قامت على اكتاف الفنان عبد الكريـم الفاسي ـ كما يقول تيمور ـ (45) نهضة متواضعـة في صناعة الخزف بمصر في القرن الماضي حيث كان يصنع الواح القاشاني (تسمى الحائطيات بالمغـرب) لتغطية جدران العمائر وتوجد الآن نمـاذج منها في دار الآثار العربية بالقاهرة .

ولم يحظ المغرب الاقصى في مختلف العصـور بزوار من علماء المغرب اذا استثنينا الوافدين في عهد المنصور السعدي (أي أوائل القرن الحـادي عشـر الهجري) من الحجاز وفلسطيـن ومصـر والشـام والعراق والهند وقد سبق لصلاح الدين الايوبي ان بعث وفدا الى المنصور الموحدي عام 585 هـ يطلب منه امداده باسطول لمحاصرة عكا وصور وطرابلس الشام واوفد اليه ابا الحرث عبد الرحمن بن منقذ مع رسالة من انشاء القاضي الفاضل وقصيدة من نظم ابن منقذ مطلعها :

سأشكر بحرا ذا عباب قطعتـه
الى بحر جود ما لاخراه ساحـل

وكل من الرسالة والقصيدة لا تختلفان فـي معناهما ومبناهما عن اللون العادي المتحجـر الـذى وسم الادب العربي في هذا العصر شرقـا وغربـا والذى جعل مصطلحاته متناسقة موحدة .

واستسـمح حضـرات الاخـوة اذا انـا ازعجتهم بلائحة طويلة استهدفت من سرد اسمائهـا اعطاء صورة عن اتجاه علماء المغرب الجديد في اعطاء الاسبقية للعلوم الاسلامية لاسيمـا منهـا التفسـير والحديث والفقه مما اضفى على دراساتهم ـ رغم كلاسيكيتها وتفاريعها الاستطرادية المملة ـ طابعـا خاصا جعل منها مرجعا هاما في تاريخ التشريـع الاسلامي وتاريخ تطور اللغـة واذا كان الرحالـون المغاربة من العلماء قد تضاءلوا في القـرن الماضـي بسبب الحواجز الاستعمارية التي اقيمت في طريـق الحجيج بالجزائر منذ عام 1830 م فان المغرب ظـل مع ذلك يتتبع بتلهف جميع حركات التجديد المنبثقـة من الشرق ويوالي بعث وفود رسمية تحمل دوريا هدايا وصلات لرجال الفكر ورباع الاوقاف المرصودة لاعانة الطلبة (46) وقد جدد السلطان محمد بن عبـد

---

(39) توفي عام 872 هـ (الاعلام ج 4 ص 125 . (40) السلوة ج 2 ص 160 .
(41) السلوى ج 1 ص 142 . (42) توفي عام 1094 (الاعلام للزركلي ج 4 ص 334) .
(43) طبع باسم مجمع الفوائد في مجلدين .
(44) نيل الابتهاج ج 84 و 96 وقد كان بمصـر في اخر القرن الماضي (عام 1898 م) نحو 1500 مغربي (الوثائق المغربية ج 11 ص 1907) .
(45) في كتابه حول التصوير عند العرب .
(46) وقد حبس السلطان محمد بن عبد الله مصنفات شتى على مكاتب القاهـرة والاسكندريـة وجلب كتبا من الشرق ورتب لاهل الحجاز واليمن مائة الف مثقال ذهبي كل عام (الاتحاف لابن زيـدان ج 3 ص 251) والمثقال الذهبـي قد عوض الدينار بالمغرب وضرب نوع منه بالرباط عام 1787م وكانت قيمته اقل من الدينار .

الله عصر الموحدين بالدعوة الى السلفية ودراسة الحديث وامهات الكتب تركيزا للملكة العلمية بدلا من الانكباب على المختصرات التي حجرت الفكر وضرب لذلك امثلة حية بتصنيف نماذج رائعة كما اصدر نجله السلطان سليمان رسالة نحا فيها منحى السلفية الصحيحة بالتحذير من الحياد عن المذهب السني وعدم التغالي في المراسيم الصوفية وكان كتاب عبد الله بن سعود قد وصل وانذاك الى تونس وفاس يحتل اسس الدعوة الوهابية ، اي المذهب السلفي كما يراه محمد بن عبد الوهاب ، فتصدى للجواب عنه عالم فاس الشيخ حمدون بن الحاج باسم السلطان وحمل الجواب الى الحجاز نجله الامير ابراهيم في وفد من العلماء لمناظرة الوهابيين .

وهكذا برهن المغرب دوما عن روح اسلامية فياضة اهلت الشمال الافريقي لاحتضان التراب الاندلسي ولربط امجاد الماضي والحاضر والسهر على معطيات الفكر الاسلامي في سلفيته الحق ولطبع الاجيال المتوالية بميسم المثالية في نطاق الوحدة الاسلامية وكانت هذه الروح تذكي حتى المراة في خدرها بالرغم عن الدور المحدود الذي اسهمت به في تركيز التكوين الفكري في المجتمع المغربي نظرا لانتشار الامية بين النساء واذا كانت المراة هي المدرسة الاولى للحياة والنواة الجوهرية للدعم الوعي الديني داخل الاسرة فان حصافة المراة المغربية قد جعلت منها ـ بالرغم عن ثقافتها المحدودة ـ مربية بارعة تضرب المثل الحي برصانة تفكيرها وحسن تدبيرها على ان ثلة من النساء قد نبغن ـ على قلتهن ـ في مختلف المجالات الثقافية وخاصة في العلوم الاسلامية كخيرونة الفاسية والشيخة ام قاسم الاسفية وام هانيء العبدوسية، وقد توالى بناء المدارس الدينية حتى بلغ عددها المائتين في سوس وحدها وانتشرت آلاف الكتاتيب القرءانية على نطاق واسع في السهل والجبل كروافد للكليات والمعاهد «الاصلية» التي انطلق منها الاشعاع الديني بلغة القرءان وقد ظلت جامعة القرويين طوال مدة الاحتلال الاستعماري منبثقا للاحرار الذين اججوا نار الثورة ووثقوا الصلة مع زعماء الاسلام في الشرق امثال الافغاني وعبده ورشيد رضى ـ بعد ما اوهنتها دسائس الاستعمار .

وهكذا نستجلي من هذا الاستعراض لتطور الفكر الاسلامي في المغرب الاقصى صورا لوحدة اللغة وتناسق مصطلحاتها مع الشرق العربي بفضل جهود دائبة ما فتيء يبذلها رسل الفكر طوال الف عام من الاستقلال الا ان المغرب الاقصى ربما انفرد بون خاص يرجع لانتشار حفظ القرآن والحديث والمتون الفقهيه والنصوص النحوية وحتى المعاجم اللغوية . ، في شنقيط وسوس ، مما فسح المجال لمات المفردات العربية الخالصة التي طعمت لغة الخاصة والعامة وكان للحلقات العلمية التي تعقد يوميا ويحضرها الجمهور في مختلف المساجد (وما اكثرها بالمغرب حيث بنغت بفاس وحدها في عهد الموحدين زهاء خمسين وسبعمائة) اثر قوي في توعية الشعب وتفصيح لسانه حتى اصبحت الآي القرءانية والاحاديث النبوية والحكم الصوفية تتردد على كل لسان وامسى القرءان معجم المساكين ـ كما يقول المثل العامي ـ يصححون منه اللغة واذا قصرنا التنظير بجزء يسير مما ورد في كتابنا « المعجم الصوفي من القرءان » فان حرف الالف منه يبلغ المائة منها كلمات الاخلاص وارذل العمر والاستدراج والاستغاثة والاستغفار والاستقامة والاسراب والاصنام والاطلاع على الغيب والاعتصام والاقتصاد واقشعرار الجلد والالواح والامانة والامتثال والانابة وانباء الغيب والانذار والانصاب والانفاق والاوان والاوثان والاوليا والالحاد والائمة والايمان .

وقد دخلت كثير من التعابير القرآنية في لغة العامة مثل قولهم « قتل كيف قدر » (اي مات طبقا لما قدر في الازل) و«قاتلهم الله» و«خذوه فاقتلوه» (وهي كناية عن فعل الشيء باستعجال وبالله وتعال (بمعنى تعال وائت) وقل باسم الله او توكل على الله (اي اشرع في العمل) والصلا على النبي (اشارة الى النهاية او الكفاية خبرا ا انشاء) ولا الضالين (كناية عن الموافقة بدلا من نعم وبالتي هي احسن (اي بالمهل) الى غير ذلك .

ومن المصطلحات التي تسربت الى الفصحى والعامية عن طريق الحديث النبوي الشريف قولهم حج فلان (اي بلغ الغاية) وصلى عليه صلاة الجنائز (أي يئس من خيره وشره واعتبره كانه مات ، وكفر عليه (اي افتاظ منه) وفلان حال واحوال ، اي كثير التغير) وقد استعملت مثلا لفظتان في المغرب بمعنى خاص طبقا لمفهوم حديثين شريفين وهما « المطاهر » بمعنى المراحيض (وتسمى عندنا ايضا الميضاءات طبقا للحديث الذي رواه مكحول عن معاذ مرفوعا « اتخذوا على ابواب مساجدكم المطاهر » وكذلك لفظ « البيت » بمعنى الجزء الصغير من الدار كلها

فعن احمد بن حنبل ان زوجة ابي حميد الساعدي قالت : « يا رسول الله اني احب الصلاة معك » قال : « قد علمت انك تحبين الصلاة معي وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك » واما كتب الفقهاء فقد دفنت مفاهيمها وكتبت حول نصوصها ومتونها مآت الشروح التحليلية واصبحت لغتها من اعمق اللغات دلالة ووضوحا وقد وضعنا معجما للفقه المالكي (باللغتين العربية والفرنسية (47) يعطينا صوره عن مدى تلك الدقة وقد اندرج معظم هذه الالفاظ في الحياة اليومية ونكتفي هنا بالاشارة الى كلمات من حرف الالف كابراء واتفاق العلماء واثبات الدليل والاجبار والاجتهاد والاجارة والاجرة والاجل والاختبار والارتداد والاثراء والاستحقاق والاستحالة والاستماع والاشتراك والاصول والافتصاب والافتاء والاقالة واقامة الحدود والاقرار واقامة البينة والامر بالمعروف وامضاء البيع وامارة المومنين والاتفاق والانكار واهل الحل والعقد .

وقد كان للروح الاستقلالية في التشريع بالمغرب مظهرها البارز في الاجتهاد داخل المذهب المالكي نفسه حيث فرضت فاس مثلا نظرها الخاص في قضايا قانونية وفقهية تجلت في العمل الفاسي الذي نظمه الشيخ عبد الرحمن الفاسي وشرحه الشيخ السجلماسي .

وقد صنفت الآلاف من الكتب في الفقه والفتاوي والنوازل والاحكام بدت ما عرفه الشرق وحفلت بالتعريفات الدقيقة للمفاهيم والمدلولات التي تزخر بها تلك المصنفات حتى صار الدرس الفقهي في كراسي جامعة القرويين عبارة عن تحليل لتلك التعاريف (48) التي كثيرا ما تنظم شعرا كقول ابن عاصم في تحفته :

وما انتهت للجوف فهي الجائفة

وقوله :

والرتق داء الفرج في النساء
كالقرن والعفل والافضاء

والبضع بالبضع هو الشغار
وعقده ليس له قرار

وسمي الضامن بالجميل
كذاك بالزعيم والكفيل

والجنس بالجنس هو المراطلة
بالوزن او بالعد فالمبادلة

ولا تخلو بعض مصنفات الفقه في الشرق من هذا الايجاز الغامض التي حررت الملازم « العديدة » لحل الغازه كمختصر الشيخ خليل المصري الذي ادخله الى المغرب منذ القرن الثامن الهجري محمد ابن الفتوح المكناسي (49) والذي حفظه الطلبة وحتى العامة عن ظهر قلب وبذلك تكون العلوم الاسلامية قد اسهمت بحظ وافر في تطوير لغة الضاد بهذا الجناح الغربي للعروبة . غير ان التعليم الاسلامي ما لبث ان تقلص وتقلصت معه حركة الوعظ والارشاد في المساجد وما تستتبعه من توعية شعبية عن طريق اللغة العربية وبدات الاذاعة والتلفزة والصحافة تقدم يوميا للشعب حصيلة لا باس بها من مصطلحات العصر تعزز احيانا بفتاو دينية تصل بين ماضي هذا البلد المسلم المحافظ وحاضره المتارجح بين مختلف التيارات وراى حماة العربية من رجال القرويين وغيرهم في ذلك ماساة لمستقبل اللغة في روعتها الاصيلة فحدت خفارتهم اليقظة الجيل الجديد الى الدعوة لعربية عصرية تستجيب لمقتضيات الحضارة الحديثة وللتقنيات الملحة في دقتها ووضوحها .

---

(47) نشر في العدد الرابع من مجلة اللسان العربي (ص 215) مع المعجم الصوفي (ص 176) .

(48) عرفت تونس ايضا شيئا من ذلك يتجلى في تعريفات ابن عرفة .

(49) المتوفى عام 818 هـ (درة الحجال ج 1 ص 293) وقد دخلت كتب الحديث واللغة الى الاندلس ومنها الى المغرب على يد قاسم بن ثابت بن حزم وهو اول من نقل كتاب العين (تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ج 1 ص 294) كما نقل ابن الضابط عثمان بن ابي بكر الصدفي كتاب غريب الحديث للخطابي ومحمد بن ابراهيم التلمساني شامل بهرام وشرحه لمختصر خليل وحواشي التفتازاني على العضد وابن هلال علي ابن الحاجب في الفقه (شجرة النور ص 254) اما في الادب والفلسفة فقد ادخل عثمان بن المثنى القرطبي (المتوفى عام 273 هـ) شعر ابي تمام بعد ان قرا عليه (ابن الفرضي ص 249) وفرج بن سلام القرطبي كتاب « البيان والتبيين » باجازة من الجاحظ (ابن الفرضي ص 286) وابو الحكم الكرماني رسائل اخوان الصفا (طبقات الامم ص 71).

الأثر الصوفي

التصوف المغربي قطعة حية من التصوف الاسلامي العربي لما تركته نظريات الصوفية المغاربة من آثار عميقة في الفكرة الصوفية الشرقية .

ونزعة فصل التصوف عن الروح العربية الاسلامية نزعة شبيهة بما حاوله بعضهم امثال رونان الذي قرر في كتابه (ابن رشد ومذهبه) (Averroès et l'Averroïsme)من ان ما يسمونه فلسفة عربية ليس الا مجرد محاكاة او تقليد لارسطو وضربا من التكرار لآراء وافكار اليونانيين كتب باللغة العربية (ص 7) ولكنه تناقض مع نفسه حيث اعترف (ص 89) (بان العرب مثل اللاتين ـ مع نظاهرهم بشرح ارسطو عرفوا كيف يخلقون لانفسهم فلسفة ملأى بالعناصر الخاصة ومخالفة جد المخالفة لما كان يدرس في الليسيوم) ولم يخف هذا التناقض على احد معاصري رونان وهو دوكا الذي ذكر في مقدمة كتابه (تاريخ الفلاسفة وعلماء الكلام المسلمين) انه لا يمكن لعقلية كعقلية ابن سينا الا ان تنتج جديدا .

وقد ضربت مثلا بالفلسفة (50) لما بينها وبين التصوف من وثيق الصلة حتى قيل ان التصوف قطعة من مذهب الفارابي الفلسفي لا ظاهرة عرضية فيه كما يزعم كارادوفو صاحب (مفكرو الاسلام) وقد تاثر الفيلسوف المغربي ابن طفيل بالنزعة الصوفية في (رسالة حي بن يقظان) حيث وصف بطل القصة (ص 114) بانه (لما فني عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود الا الواحد القيوم وشاهد ما شاهد عاد الى ملاحظة الاغيار عندما افاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر خطر بباله ان لا ذات له يغاير بها ذات الحق وان حقيقة ذاته هي ذات الحق ... بل ليس ثمة شيء الا ذات الحق) وقد ذهب الناس مذاهب شتى في تعريف التصوف حتى ساق ابن السبكي في طبقاته (ج3 ص 239) الف تعريف سهر على التقاطها من مختلف المصادر ابو منصور عبد القاهر البغدادي ورتبها تبعا لاصحابها على حسب الحروف الهجائية .

ويلذ لي ان انقل لهؤلاء الذين يزعمون ان التصوف المغربي تاثر بالنزعة الصوفية المسيحية ـ لاسيما ماسينيون الذي زعم ان الشيخ ابن عربي الحاتمي استمد من نظريات الكنيسة ما قرره المستشرق الاسباني اسين بلاسيوس من ان نزعات دانتي (Dante) الايطالي واوصافه لعالم الغيب مستمدة من كتب محيي الدين الحاتمي دون كبير تصرف وكذلك اكهارت الالماني اول الفلاسفة الصوفية الغربيين الذي نشأ في القرن التالي لعصر ابن عربي ودرس في جامعة باريس وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الاندلسية في الحكمة والعلوم وقد اقتبس ريموند من ابن عربي خاصة في كتابه (اسماء الله الحسنى) لانه كان يحسن العربية وعاش بعد ابن عربي بقرن واحد وجعل اسماء الله الحسنى مائة وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل ذلك .

وسبينوزا Spinoza اليهودي البرتغالي كان كلامه عن الذات والصفات نسخة من فلسفة المتصوفة المسلمين مع قليل من التحوير والمسيحية تكاد تكون فارغة من الفكرة الصوفية كما اعترف بذلك ميشو بيليه في محاضراته (ص 29) حيث ذكر انه اذا استثنينا ما في بعض الاساطير من ذكر الكرامات وكذلك سيرة القديسة تيريز والقديس فرانسوا داسيز فانه لا يبقى شيء بالمرة .

ويقول جامي في نفحات الانس (ص 34) بان اول من تسمى صوفي هو ابو الهاشم الكوفي المعاصر لسفيان الثوري ويرى السراج في اللمع (ص 22) ان اهل بغداد هم الذين اخترعوا هذه الكلمة .

واول من تكلم في بغداد في الحقائق الالهية والتوحيد سري السقطي (تذكرة الاولياء ج1 ص 274) واول من حاضر الناس في التصوف يحيى بن معاذ الرازي المتوفى سنة 258 هـ (التذكرة ج 1 ص 299) .

---

(50) احمد بن عبد الله بن محمد الدزوم المراكشي نزيل القاهرة جنح الى التصوف الفلسفي ونسخ الفتوحات المكية والتنزلات الموصلية فكان ابو حيان لذلك يرميه بالزندقة وصار هو يصف ابا حيان بانه ظاهري حتى في النحو .
واحمد بن ابراهيم بن احمد بن صفوان : مشارك في الفلسفة والتصوف كلف بالعلوم الالاهية تلميذ ابن عبد الملك المؤرخ وشيخ ابن الخطيب .

وقد اصبح التصوف مذهبا منظما اثناء الجزء الاخير من القرن الثالث (نيكولسن ص 28) ويلوح من ثنايا الرسالة القشيرية والتذكرة ونفحات الانس ان صوفية هذا القرن اتخذوا القرءان والسنة ميزانا لجميع ما يخوضون فيه من بحوث نظرية وما يحسونه من حالات وجدانية .

ولكن منذ ذلك العصر تسربت شوائب مريبة الى الفكرة الصوفية التى بدات نقية طاهرة وقد ذكر عبد الله الانصاري الهروي المتوفى سنة 481 هـ ان كثيرا من الاكاذيب انتحلت باسم ابي يزيد البسطامي مثل قوله صعدت الى السماء وضربت قبتي بازاء العرش (نفحات الانس ص 63) وهو القول الذى بنوا عليه قضية معراج ابي يزيد التى يقصها فريد الدين العطار فى تذكرته بتفصيل .

وانتظام هذا المذهب ليس معناه اتحاد وجهات نظر من دان به لان تعاريف التصوف بلغت كما قلنا الالف ورد منها مائتان فى الرسالة والتذكرة والنفحات وهذه التعريفات العديدة تدل على تعدد وجوه النظر فى تصور الفكرة الصوفية (مجلة الجمعية الاسيوية سنة 1906 ص 330) فقد عرف الكرخي التصوف بانه الاخذ للحقائق واليأس مما فى ايدي الخلائق (الرسالة القشيرية ص 149) ووصفه ابو حفص الحداد بانه تمام الادب (التذكرة ج 1 ص 331) وذكر ابو الحسين النوري ان التصوف برقة محرقة (الرسالة ص 149) وقرر ابو سعيد بن العربي ان التصوف ترك الفضول (نفحات الانس ص 348) وقال ابو الحسن اليوشنجي : التصوف ضعف الامل ومداومة العمل .

اما الخانقاهات والرباطات الصوفية فقد بدات تظهر قبل نهاية القرن الثاني الهجري واول خانقاه اسس لمتصوفة المسلمين (على ما فى النفحات ص 34) كان بالرملة فى فلسطين وذكر المقريزي فى خططه (ج 2 ص 414) ان الخانقاهات — او الخانقاوات كما يسميها — وجدت فى الاسلام فى القرن الخامس الهجري .

والخانقاه اعمق فى التزمت والرهبنة مما عرف بعد بالزوايا لان هذه الخانقاهات كانت مبنية فى معظمها على نظام صارم من التبتل والرهبنة .

ان تاريخ الحركة الصوفية جزء من تاريخنا العام الذى لا يشمل الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي فحسب بل يتجاوزه الى الجانب الثقافي والروحي . على ان التصوف المغربي كان له كبير اثر فى توجيه وتلوين جميع مرافق الحياة بحيث انتشرت شذراته فى مصنفات لم يكن من المنتظر ان تحفل به فانك تجد اخبار الصوفية وحياة الزهاد ووصف الحركات الطرقية التي قامت فى المغرب في وقت مبكر — مبعثرة فى كتب التاريخ والتراجم والمناقب والفهارس والرحلات ، بل حتى كتب الفقه مثل شرح ميارة على المرشد ومعيار الونشريسي الذي تحوي اجزاؤه نتفا متناثرة لو نسقت لتحصلت منها مجموعة لاباس بها فى وصف التيارات المتعاكسة التى خلقها انبثاق الطرقية فى المغرب .

ويغلب على ظننا ان الحركة الصوفية كانت انشط فى الجبل (لاسيما الريف) والقرى منها فى الحواضر اللهم الا بعض مدن الساحل التى كانت مهبطا لصوفية الاندلس كسبتة واسفي وسلا او مدن داخلية كمراكش وفاس نظرا لاشعاعها الثقافي الذى تنجذب له النفوس .. ومهما يكن فان اولى التراجم الصوفية انما حظيت بها قرى البادية ككتاب « المقصد الشريف والمنزع اللطيف فى ذكر صلحاء الريف » لعبد الحق البادسي (فى القرن الثامن) والمعزى فى ترجمة ابي يعزى « وائمد العينين » لابن تجلات فى مناقب الاخوين الهزميريين الذين عاشا ردحا طويلا فى اغمات ثم حظي صوفية المدن بكتب منها « المنهاج الواضح » فى ترجمة ابي محمد صالح (المتوفى عام 631) تلميذ ابي مدين الغوث ، ومدينة اسفي نفسها انما بنيت حول ضريح ابي محمد صالح كما قامت مدينة زرهون حول الضريح الادريسي بعد بناء المولى اسماعيل لهذا الضريح عام 1110 هـ وتاسيسه جامع الخطبة الكبير المتصل بالضريح وكذلك وزان) «والسلسل العذب الاحلى فى صلحاء فاس ومكناسة وسلا » لمحمد الحضرمي الذى صنفه فى القرن الثامن وكذلك « الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعباد » .

ولعل من اقدم الرباطات المغربية رباط وجاج بن زلو اللمطي السوسي الذى كان يسمى دار المرابطين وقد اتخذ مجمعا لطلبة العلم وقراء القرءان حسبما ورد فى التشوف (ص 36) الذى نجد من بين رجاله الصوفية كثيرا من « المعلمين » المنقطعين لتعليم

كتاب الله . وهذا مظهر ثان لنوع ما كان يشتغل به الصوفية اذ ذاك وسنرى فيما بعد كيف تطورت الفكرة الصوفية فانضافت الى التعبد بالقرءان تعبدات بالادعية والاذكار .

وكان هناك نوعان (51) من الرباطات : رباط من الطراز الذي اشرنا اليه وكان يشمل المدينة بكاملها كرباط ماسة ورباط تيط ورباطة زرهون ورباط من نوع آخر هو عبارة عن محلة يرابط فيها المجاهدون وقد روى ان الضفة اليسرى لمصب ابي رقراق كان يرابط فيها نحو من مائة الف من الغزاة الذين كانوا يتطوعون لمقاومة النحلة البرغواطية .

وبين هذه وتلك الرابطة التي ابتناها عبد الله ابن ياسين في جزيرة قرب الساحل وتبتل فيها ثلاثة اشهر مع نفر من كدالة وفي مقدمتهم يحيى ابن ابراهيم امير صنهاجة وقد توارد الناس على هذا الرباط حتى بلغ عدد المرابطين الفا من اشراف صنهاجة كانوا النواة التي قامت بتاسيس الدولة المرابطية فكانت هذه هي الدولة الثالثة التي قامت في المغرب على اساس فكرة مذهبية بعد الدولة المدرارية في سجلماسة والدولة الادريسية في الشمال وقد فسح استعداد المغاربة الروحي المجال للدعاة المهدوية مثل محمد بن تومرت الذي اسس دولة الموحدين والعبيدي الذي قام بعده في جبل ورغة من احواز فاس حيث تبعه كثير من قبائل المغرب اول عام 600 هـ .

وكانت نفس الحركة ملحوظة كذلك في الاندلس ايام المرابطين حيث ذكر صاحب لسان الميزان (ج 1 ص 247) ان احمد بن قسي ابتنى مسجدا في بعض قرى شلب (بالبرتغال) وتحدث بالاباطيل ، كما ادعى النبوة ابراهيم الفراري الساحر .

وقد تسربت الى المغرب من الاندلس الطائفة المسرية التي لم ينتشر نفوذها لقيام العلماء بنقده وفي طليعتهم الامام ابن حزم الذي لا نعرف نظريات ابن مسرة الا من خلال انتقاداته وهذه الطائفة وان كانت لا تنتسم بالطابع الطرقي الا انها من المذاهب التي ارتكز انتحالها على مذهب صوفي اساسه التاويل الرمزي للقرءان على طريق الاسماعيلية التي لعبت دورا كبيرا في تبلور الفكرة الصوفية في الاسلام ! .. ومنها الطائفة الاندلسية التي اسسها محمد الاندلسي نزيل مراكش وكان رجلا مولعا بالطب والكيمياء فسب الائمة فافتى فقهاء الحمراء بتضليله وزج به السلطان في غياهب السجن .

وقد ظل المغرب خلال العصور الاولى بعيدا عن الطوائف الضالة وعن النظريات الشاذة التي كانت تعصف اذ ذاك بالشرق وقد شهد ابو بكر الطرطوشي الذي صنف كتابا في البدع والمحادثات في رسالة وجهها من الاسكندرية الى سلطان المغرب بان اهل المغرب هم المشار اليهم في الحديث الشريف « لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق » لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والاحداث في الدين » !

فنحن لا نكاد نجد اثارة بدعة جافية في ربوع المغرب قبل القرن السادس ولا يمكن ان نعثر فيما صنف خلال القرون الاولى كالتشوف على اشارة الى شذوذ عند الصوفية او صدور دعاوي نابية عنهم لان التصوف كان اذ ذاك مطبوعا بالبساطة ولم يكن الصوفية يختلفون عن بقية الناس الا بكثرة العبادة وتلاوة القرءان وسرد المأثور من الادعية وكانت الاذكار نفسها مقتبسة من الآثار الواردة ومن القرءان من ذلك بعض الاحزاب لاسيما احزاب الشاذلي التي تتالف مطالعها من سلسلة آيات ولم يكن لبس الخرقة والمرقعة صفة لازمة للصوفي المغربي الا اذا جاء ذلك عفوا من طريق الزهادة في متع الدنيا وكانت الرباطات عبارة عن مجامع لقراء العلم وتلاوة القرءان والجهاد فاذا طالعت تشوف ابن الزيات وجدت ان كثيرا من رجاله كانوا «معلمين» او مدررين يعلمون القرءان للصبيان !

وكان الامر على خلاف ذلك في الشرق حيث ترجع معظم المستحدثات الشاذة الى القرن الثالث كوحدة الوجود والحلول والتحدث بلسان الحقيقة المحمدية والايغال في لبس المرقعات واندساس

(51) عدد الربط والزوايا في سبتة سبع واربعون محاذية للبحر داخل المدينة والارباض (اختصار الاخبار لمحمد بن القاسم الانصاري Hespéris م 12 عام 1931 ص 155 .

الادعياء في صفوف النزهاء حتى كان القشيري ينشد اذا جلس اليه الصوفية وعليهم الهيآت والمرقعات ابياتا منها :

اما الخيام فانها كخيامهم

وارى نساء الحي غير نسائها

ثم يقول اما الهيئات والمرقعات فمعروفة واما القلوب فمنكرة وكان الجنيد ينشد :

اهل التصوف قد مضوا

صار التصوف مخرقة

صار التصوف ركوة

وسجادة ومذلقة

غير ان الفكرة الصوفية ما لبثت ان تشعبت فتسرب اليها الانحراف والشذوذ بعد القرن الثامن الهجري على اثر انتشار الطرقية واندساس الادعياء في الزوايا والرباطات فانتحل الكثير المذهب الصوفي لاغراض لا تمت الى الروح بصلة واصبح التصوف عرضة للافتيات يستغله كل من يريد التوصل الى اغراض الدنيا عن طريق الشعوذة والتدليس على العوام والدهماء فتجردت الطرقية من شتى مظاهر الرواء والسمو والجاذبية والجمال

وبدات الفكرة الصوفية المغربية تتبلور منذ القرن الثامن محاطة بهالة من الشكليات المستحدثة وما زال التراث الصوفي يتضخم ويتسع الى اواخر القرن الثاني عشر حيث اتضحت الخطوط واكتملت الرسوم والحدود بفضل ذلك النبع الفياض من التآليف التي ترجمت للصالحين ومناقبهم وطرائقهم.

والحقيقة ان التصوف بدا يتدهور منذ اصبح في متناول العوام تلوكه السنتهم في غير هدى ولا اتزان ولن اضرب لك سوى مثل واحد وهو طريقة ابي محمد صالح دفين اسفي وتلميذ ابي مدين الغوث فقد كان اماما ذائع الصيت يرد عليه الصوفية حتى من مصر للاخذ عنه وانتشرت طريقته خلال القرن السابع فكثر تلاميذه في الشام وبلاد الكنانة حتى مدحه البوصيري بقصيدة طويلة مطلعها :

قفا بي على الجرعاء من جانب الغرب

ففيها حبيب لي يهيم به قلبي

غير ان طريقته هذه التي كانت سنية المعالم ما لبثت ان انحرفت بما دسه فيها الدخلاء والادعياء واصحاب الاغراض من الدجاجلة والملبسين .

وفي القرن الثامن ظهر ابن خلدون بكتابه « شفاء السائل » فرد الطرقية الى اصولها وحلل خصائص الصوفية الحقيقيين ليتميزوا عن الادعياء.

وفي القرن التاسع برز محتسب الصوفية الامام الناقد الشيخ زروق بكتابه « عدة المريد الصادق من اسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت »، وقد علل انتشار المبتدعة والادعياء بانتقاص الايمان والجهل باصول الطريقة واعتقاد ان الشريعة خلاف الحقيقة (وهذا عنده من مباديء الزندقة) وحب الرياسة مع الضعف عن اسبابها ثم اكد ان الصوفية الحقيقيين انفسهم عرضة للخطا وان مقالاتهم يجب ان تعرض على الكتاب والسنة وان الفقه والاصول شرطان في التصوف فلا تصوف الا بفقه .

وقد تعرض الى الاسس العملية التي بنى عليها الطرقيون مددهم فذكر انهم قرروا مخالفة النفس بكل وجه وغلطوا في هذا الاطلاق لان المقصود موافقة الحق بمخالفة النفس لا مجرد مخالفتها واستشهد بقول عمر بن عبد العزيز :

« اذا وافق الحق الهوى فذلك الشهد بالزبد »

وانهم تجردوا عن المعتادات بدلا من الانس بها وتغالوا في بعض المظاهر كتوفير ما تحت اللحية وادخلوا على انفسهم المشاق والاجر على الاتباع لا على قدر المشقة وقد اشار الى الفتنة التي وقعت في الاندلس في القرن الثامن حول قضية اتخاذ المشايخ حتى تضارب الناس بالنعال وكتبوا الى البلدان الاسلامية يستفتون ولا شك ان شيوع تلك الفتن كانت نتيجة مباشرة لانحراف التصوف عن الجادة وتدخل العوام في رقائقه ، كما كان ابو المحاسن الفاسي ينهى عن ذلك مؤكدا ان كتب الحاتمي وابن الفارض « تسد على الناس باب الفتح» حسب تعبيره ويدعو الى الادمان على حكم ابن عطاء

الله . والشعراني (52) نفسه كان ينهى مريديه عن قراءة كتب التصوف والتوحيد المطلق كمصنفات ابن عربي وغيره من « غلاة الصوفية » (البحر المورود ص 274) وهذا لا يتنافى مع ما جاء في مقدمة اليواقيت والجواهر من الدعوة الى كتب ابن عربي فانه احترس هناك ـ كما يقول زكي مبارك ـ حين اقنع المريد بأن ما جاء في كتب ابن عربي مخالفا للشرع انما هو من وضع الدساسين .

كما حمل اليوسي في محاضراته حملة شعواء على ادعياء الطرقية ورسم لنا صورة عما انتهى اليه التصوف المغربي بسبب من اندس في حظيرته من مغرضين فقد قال : « كم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو معتوه او موسوس او ملبس فيقع به الاغترار للجهلة الاغمار .. وقد يشابهه من هو مثله من الحمقى ومن الفجار » (ص 39) ومن اغرب ما حكاه اليوسي (ص 40) ان رجلا ورد على سجلماسة واتسم بالصلاح فاقبل عليه الناس ثم تبين بعد انه يهودي .

وكانت البادية المغربية اكثر ايغالا في الابتداع واشد انحرافا عن الروح لغلبة السذاجة على اهلها الذين كانوا يلغون في التبرك بآثار الصالحين حد الشذوذ .

وفي القرون الاخيرة اختلت المقاييس وتشعبت الدعاوي واستفحلت النحل فكنت ترى افواج الناس يقصدون ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه كل سنة للوقوف به يوم عرفة ويسمون ذلك حج المسكين وتجد آخرين يسمون انفسهم باهل الخواطر يتجمعون باحد مساجد عدوة الاندلس للتحدث عن الخواطر وعرضها على الشيخ وتاويلها غير ان علماء الصوفية كانوا حريصين على نفض الدجاجلة الذين يندسون في حظائرهم التماسا لاعراض الدنيا وحطامها على ان دعاة السلفية امثال الطرطوشي وابن العربي المعافري وابي محفوظ راشد من المغاربة وابن القيم وشيخه ابن تيمية وابن الجوزي من المشارقة قد تشبعوا هم انفسهم بالتصوف السني واذا رجعنا بين المتاخرين الى سيرة محمد عبده وجدنا تلميذه مصطفى عبد الرازق يؤكد في الكتاب الذي خصصه لترجمته ان الشيخ درويش اثر بتربيته الصوفية في الاستاذ ويعلل هذا التاثير قائلا : « اذا كانت التربية الحديثة تدعو الى تهذيب الاذواق بفنون الجمال الحسي فان التربية الصوفية تدعو الى تلطيف السر بانواع من الرياضة » وقد جاء في ملخص سيرة عبده المنشور في المجلد الثامن من المنار » انه لكثرة انهماك في الذكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في احوال القوم ومقاماتهم يخرج (اي الاستاذ) عن حسه ويزج في عالم الخيال او عالم المثال كما يقول فيناجي ارواح السالفين » وقد كان التصوف والتفسير هما «قرة عين الاستاذ» على حد تعبير مصطفى عبد الرازق غير ان جمال الدين الافغاني « خلع محمد عبده من التصوف بمعنى الدروشة والانقطاع الى التحنث والرياضة الى معنى للتصوف جديد (ص 74) وقد ترجم محمد عبده شيخه الافغاني في صدر رسالة الدهريين فوصفه بانه « حنيفي مع ميل الى مشرب السادة الصوفية رضي الله عنهم » .

وحمل زكي مبارك على الصوفية ما شاء له فكره الثائر وقلمه الجامح ولكنه عاد آخر الامر فقال في كتابه « التصوف الاسلامي » : الصوفية هم الناس ومن عداهم اشباح بلا ارواح » (ج 2 ص 205) وقال : « ان الصوفية اعقل من الادباء واشرف سيلقى الصوفية ربهم راضين مبتسمين اما نحن فسنذهب الى النار في ركاب امريء القيس الذي انذره الرسول » (ج 2 ص 322) .

وقد قدر للمعاني الصوفية الرقيقة ان تستهوي جميع اصناف المثقفين في مختلف العصور ولكن كل طائفة نظرت الى اسرار التصوف من خلال مزاجها واللون الخاص الذي تكيفت به روحها في الحياة وقد لاحظ ذلك زروق في قواعده (القاعدة رقم 59) .

---

(52) ذكر الشعراني في « تنبيه المغترين » (ص 7) ان بعض الناس دس في كتابه البحر المورود في المواثيق والعهود وفي مقدمة كتابه «كشف الغمة عن جميع الامة » ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة واثار ذلك فتنة في الجامع الازهر ولم تخمد الفتنة الا بعد ان ارسل النسختين الاصليتين المجازتين من بعض مشايخ الاسلام الى العلماء الازهريين للاطلاع عليهما وقد اشار الشعراني في كتابه الى ما استحدثه كثير من مشايخ وفقراء عصره مما يخالف السنة حتى اصبحت اصول التصوف غريبة عند منتحلي الطريقة

واذا استعرضنا تاريخ الثقافة المغربية وجدنا ان اقطاب التصوف كانوا في نفس الوقت جهابذة الفنون وزعماء العلوم وقد ذكر صاحب « نشر المثاني» انه لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن الحادي عشر لكثرة الفتن وهم محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن ابي ابكر المجاطي رئيس زاوية الدلاء وعبد القادر الفاسي الذي تبلورت في عهده الطريقة الزروقية وغالب فقهاء افريقيا ـ كما قيل ـ تلاميذه وقد قيل في العربي ابن ابي المحاسن الفاسي ان به ختم علماء المغرب وكذلك والده وعمه ابو زيد الذي افاض ابو العباس المقري في وصف غزارة مادته لعلماء مصر عندما سألوه عن علماء المغرب فشبهه كما شبهه غيره بالسيوطي لوفرة علمه وقد تمحض ابو زيد لتربية المريدين وتلقين الاوراد على سعة علومه وذكر صاحب الديباج ان محمدا المقري تكلم في طريق الصوفية كلام ارباب المقال ودون في التصوف « اقامة المريد » و «رحلة المتبتل» و «كتاب الحقائق والرقائق» الذي شرحه زروق .

وقد تمخضت الحركة الصوفية عن نمو وازدهار الثقافة في ربوع المغرب لاسيما البادية ولا يخفى ما اسدته الزاويتان الناصرية والدلائية من اياد بيضاء في هذا الباب وقد كان في زاوية محمد بن وسعدن السوسي تسعمائة طالب يكسيهم ويطعمهم من ماله الخاص وظل مستمرا على مبرته هذه اربعين سنة .

وكانت كتب التصوف تدرس الى جانب كتب الحديث والتفسير فهذا ابو المحاسن الفاسي يدرس قوت القلوب والاحياء والشريشية في آداب السلوك ويلتف حوله خلق كثير وفي آخر حياته نفض يده من سائر العلوم الاخرى واقتصر على التفسير والحديث والتصوف وابو المحاسن هذا كان اذا توجه من فاس الى القصر تعطلت الاسواق او كادت لخروج الناس لمقابلته .
وهذا النفوذ الذي كسبه الصوفية حدا المرابطين والموحدين الى امتحانهم حيث استدعوا من الاندلس او افريقية امثال ابن العريف وابي الحكم بن برجان وابي مدين الغوث .

وقد هدات نوعا ما حركة الامتحان في عهد المرينيين الذين لم يكونوا يخشون امتداد نفوذ الصوفية لان الدولة كانت قوية الجانب قد انصرفت الى اتمام صرح الحضارة المغربية التي بلغت في ذلك العصر ذروتها . لكن سقوط الدولة المرينية كان على يد الصوفية بسبب ما اتسم به بعض امراء بني وطاس من ميع وانحلال .

فقد انتشرت شرارة الثورة السعدية من سوس فعمت البلاد ملتهمة ما تبقى من نفوذ الوطاسيين واغلب ما في الامر ان محمد الشيخ مؤسس الدولة السعدية ما لبث ان انقلب على الصوفية فقد امتحن ارباب الزوايا منذ سنة 958 وذلك خوفا على ملكه لما كان للعامة في اصحاب الطوائف من اعتقاد . وفي ايام زيدان تضعضع نفوذ السعديين واستقل المجاهد العياشي الصوفي بالامر في كثير من النواحي وكانت شوكة الصوفية قوية وجانبهم منيعا حيث بلغت الزاوية الدلائية عنفوانها .

وقد قام ضد زيدان احد الادعياء المتمهدين وهو احمد بن ابي محلى الذي توجه الى بلاد القبلة ودعا لنفسه فاستخف قلوب العوام .

ولما استقر الملوك العلويون بالنفوذ في المغرب قضى مولاي رشيد على زاوية الدلاء بعد معركة دارت بينه وبين اهلها في بطن الرمان اوائل المحرم عام 1079 هـ وهم السلطان المذكور كذلك بمحمد ابن محمد بن ناصر وجهز محلته للزحف الى زاوية درعة ولكنه عدل عن ذلك بعد ان تحقق صدق ولاية الرجل .

كما جدد المولى اسماعيل بعض الاضرحة التي لم تكن في ذلك العهد اكثر من مساجد تقام فيها الصلوات وترتل فيها آي القرءان والاذكار والدعوات فلم ير الملوك ما يدعو الى استنقاصها بيد ان الاستعمار وصنائع الاستعمار افسدوا جوانب من هذه الروح الطيبة التي كانت تسري في هذه البيوت الطاهرة .

ولعل من ابرز نماذج التصوف المغربي اي الفلسفة الروحية والخلقية المغربية رجلا تغلغلت مقالاته السيارة في قرارة النفوس فقومت اودها طوال اجيال متوالية وطبعت التصوف المغربي بميسم خاص افرغت منه الحقيقة الصوفية في قوالب شرعية وروح التوكل في صورة السبب ولطائف الروح واسرار النفس في اشكال مبسطة وذلك الرجل هو سيدي يوسف الفاسي الفهري ـ ويمكن

القول بان نظريات هذا الرجل الخلقية والنفسية والالهية تتركز فيها خلاصة النظريات المغربية في هذا الباب .

ومن نظرياته الطريفة ان الرجل قد يؤخذ عن العالم الادنى ليرقى الى العالم الاسنى وذلك عندما يتمحص صدقه واخلاصه وتضمحل انانيته فتتكشف في باطنه حقائق وتختلج في سره رقائق

وتعرض له احوال وجدانية لا تنضبط ولا ترتبط بمعهود وقد تسمو روحانية الصوفي فيتجرد عن بشريته ويتحد اي في التوحيد لان الفناء هو اتحاد بلسان المجاز وتوحيد بلسان الحقيقة. وهذه الظواهر كلها ذوقية وجدانية (فمن ذاق ـ كما يقول الشيخ يوسف ـ عرف ومن لم يذق فلا حرج اذا سلم واعترف وهذه طرائف تقصر عنها العبارة ولا تلحقها الاشارة اذ لا يفهم عنك الا من اشرق فيه ما اشرق فيك) .

وقد تجلى ابرز مظهر للتصوف الحقيقي في المغرب في اقرار التسامح والسلام في المجتمع واسعاف طبقاته المعوزة واجراء الامدادات الموصولة لتخفيف وطأة البؤس فهناك مذهب صوفي مغربي بحت يرجع الفضل في وضع اسسه ونشر دعوته لرجل من اهل القرن السادس هو ابو العباس السبتي (53، الذي كان يرى ان لباب القوانين الشرعية هو الصدقة فكان يجلس في الاسواق والطرق ليحض الناس على البذل والجود مرددا بكلماته الخالدة :

(اصل الخير الاحسان واصل الشر البخل) وقد اشتهر مذهبه ابما اشتهار حتى نعته معاصره الحاتمي في فتوحاته المكية بصاحب الصدقة في مراكش .

وقد كان لهذه الدعوة الرها فاسست الملاجيء في مختلف انحاء المغرب حيث كان يأوي العجزة والفقراء والطلبة فيجدون الطعام السائغ والفراش الوديع وقد تنافس الصوفية في هذه المظاهرات الاحسانية فاضطر الملوك الى المساهمة فاسسوا الزوايا في الفلوات لايواء عابري السبيل واوقفوا لها الاوقاف الوفيرة .

ومن نماذج الاسلوب الادبي الرائع في التصوف ما كتبه ابن خلدون في مقدمة كتابه « شفاء السائل » حيث قال : « وقعني بعض الاخوان ابقاهم الله على تقييد وصل من عدوة الاندلس وطن الرباط والجهاد وماوى الصالحين والزهاد والفقهاء والعباد يخاطب بعض الاعلام من اهل مدينة فاس حيث الملك يزار وبحار العلم والدين تزخر وثواب الله يعد لانصار دينه وخلافته ويدخر طالبا كشف الغطاء في طريق الصوفية اهل التحقق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانية هل يصح سلوكه والوصول به الى المعرفة الذوقية ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تعلما من الكتب الموضوعه لاهله واقتداء باقوالهم الشارحة لكيفيته فتكفي في ذلك مشافهة الرسوم ومطالعة العلوم والاعتماد على كتب الهداية الوافية بشروط النهاية والبداية كالاحياء والرعاية ام لا بد من شيخ يبين دلائله ويحذر قوائله ويميز للمريد عند اشتباه الواردات والاحوال مسائله فتنزل منزلة الطبيب للمرضى والامام العدل للامة الفوضى » .

ثم تحدث عن اغراض التصوف ومصطلحاته فقال : « فبيان هذه الاصطلاحات يتضح الكثير من هذا الغرض » فمن ذلك تحليله للكشف عند الصوفية بقوله : « وبيان ذلك ان المبصر اذا راى شخصا ثم غمضت الاجفان دونه بقي متخيلا ثم اذا فتح اجفانه مرة اخرى رآه كما كان فبين الحالتين كشف »

وقد تحدث باسهاب عن هذه المصطلحات فقال : « اقتضى التعليم والمفاوضة في المجاهدة الخاصة المنفردة عن الجمهور الانفراد باصطلاح خاص يكون لهم في مفاوضتهم والفاظ مخصوصة بمعان من

---

(53) وجه ابن رشد الى مراكش عالما قرطبيا لدرس نظريته التي لاحظ انها مرتكزة على المبدا القائل بان « الوجود ينفعل للجود » وقد لاحظ التادلي في ملحق التشوف (الاعلام للمراكشي ـ فاس 1355 ج 1 ص 240) انه « يرد اصول الشرع الى الصدقة » وكان القيروان على طرف لسانه ولد عام 524 هـ ومات بمراكش عام 601 هـ وشيخه الفخار هو صاحب عياض ـ كان يجلس حيث امكنه الجلوس من الاسواق والطرق فيحض الناس على الصدقة » وكان يعبر رفع اليدين للتكبير للتخلي عن كل شيء والركوع بالمشاطرة والسلام بالخروج من كل شيء وان سر الصوم الجوع وذكر الجائع والزكاة التدرب على البذل .